مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q2].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

خطاب التعصب الديني المسيحي في كتابات الرحالة الأوربيين حول الاسلام والمرأة صورة المرأة المغربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي أنموذجًا

د. مجيد هلال

دكتوراه التاريخ من جامعة محمد الأول

أستاذ التاريخ والجغرافيا بالتعليم الثانوي

وجدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

إن النصوص الرحلية، من المصادر التي يمكن للباحث التاريخي أن يسند بها بحثه، نظرًا لما يربط تلك المادة التي تختزنها بمواضيع وقضايا تاريخية، لكن تبقى من ناحية أخرى، حاملة لصور وتمثلات الرحالة للآخر؛ صور قد تعكس واقعًا معينًا، أو قد تتخللها بعض العناصر الذاتية والإيديولوجية، لذلك يبقى تناول ما ورد بها أمرًا أساسيًا في البحث التاريخي، لكن عبر آليات التمحيص والنقد الصُّورلوجي. وعلى هذا الأساس؛ تهدف هذه الدراسة إلى استنطاق النص الرحلي الأوربي، من أجل الكشف عن مرامي الخطاب الذي يحرّك هذا النص من الخلف، من خلال الوقوف عند نماذج من النصوص لرحالة أوربيين كتبوا عن المغرب والمغاربة، كجزء لا يتجزأ من الفضاء الاسلامي، وذلك عبر البحث في موضوع المرأة المغربية في علاقتها بالدين الاسلامي ضمن هذا الخطاب، أو بالأحرى هي خطابات، وذلك تبعًا لخلفيات دينية ومحركات إيديولوجية تُنَشِّطُ هذه النصوص سواء بشكل صريح أو بشكل مُضمر، بغرض تشويه صورة الاسلام و التفوق للدين المسيحي، وذلك عبر تشكيل صورة المرأة المسلمة والمجتمع الاسلامي وفق هذا الخطاب المتعصب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ مايو ٢٠٢٥

تـاريخ قبــول النشــر: ٢٩ يونيو ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

المرأة المغربية؛ خطاب التعصب الديني؛ الرحالة الأوربيين؛ الإسلام

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/kan.2025.389476.1234

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مجيد هلال. "خطاب التعصب الديني المسيحي في كتابات الرحالة الأوربيين حول الاسلام والمرأة: صورة المرأة المغربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الثاني والسبعون؛ أكتوبر ٢٠٢٥. ص ١٤٤ – ١٥٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author majido02@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

موضوع مقالنا تحرّكه إشكالية مركزية، تتجلى أساسًا في سؤال الإبستمولوجي والإيديولوجي في الخطاب الرحلي الأوربي من خلال بعض قضايا المرأة في علاقتها بالتشريع الاسلامي ومحدداته. وبتعبير آخر: أين تتجلى معالم إيديولوجيا الخطاب الديني المتعصب الذي ينطوي عليه النص الرحلي الأوربي؟ وكيف تمّ تشكيل وتوظيف صورة المرأة المغربية في علاقتها بالدين الاسلامي في تمرير هذا الخطاب؟

إذن؛ هي إشكالية نسعى من خلالها إلى مقاربتها ومعالجتها عبر منهج تاريخي نقدي، يرتكز على مقاربة صورلوجية نقدية، تحليلية، تقف عند نماذج من هذه النصوص الرحلية الأوربية تعود للقرن التاسع عشر الميلادي، في شقها المتعلق أساسًا بعنصر المرأة المغربية، كنموذج للمرأة المسلمة عموما، والكشف عن بعض تجليات الإيديولوجي في الخطاب الرحلي، في إطار دراسة تفكيكية للمعرفة الغربية حول الآخر، وتأويل ما قد لا يفصح عنه هذا الخطاب بشكل مباشر، وهو ما يسهم في فهم أنساق الخطاب الرحلي الأوربي و مراميه، الهادفة إلى مَعْيَرة النموذج الأوربي ومركزيته، مقابل انحطاط وتخلف الآخر، هي أطروحة تتبلور عبر إنتاج نص رحلي، حيث لا ترى عين الرحالة الواقع بصورة موضوعية، بل من خلال رأسمال الرّائي، والتي تعرف ما يجب أن يُقال، وكيف يمكن أن يقال للمتلقي بكل سلاسة وانسيابية عبر قوالب نصية، تُخفي من ورائها خطاب إيديولوجي غير بريء، يتسلل إلى ثنايا النص عبر قنوات خطابية قد تتعدد داخل النص الواحد؛ منه الديني والسياسي والثقافي والإمبريالي، ولعل هذا ما تتوخاه دراستنا من خلال تحريك بعض ما كتبه الرحالة الأوربيون حول المغرب والمغاربة، خلال القرن التاسع عشر الميلادي، من زاوية المرأة المغربية وحضورها داخل هذه النصوص، وذلك عبر رصد وتفكيك الخطاب الديني الأوربي القائم على خطاب المركزية المسيحية وتبخيس وتشويه ديانة الآخر؛ أي الآخر المسلم.

خطاب التعصب الديني المسيحي في كتابات الرحالة الأوربيين

بداية؛ لا ننكر أهمية المصادر الرحلية، ووزنها المعرفي في البحث التاريخي عمومًا، إلا أنها تبقى مصادر أجنبية، ينبغي أن يتناولها البحث بقلم متريث، وعين فاحصة ناقدة، تحاول تتبع كل سطر بين ثنايا هذه النصوص، وذلك عبر قراءة عمودية تتجاوز الظاهر النصي، نحو تعميق القراءة وتفكيك الخطاب الرحلي، لذلك يبقى أمر الاستناد إلى النصوص الرّحلية الأوربية في البحث التاريخي، مشروط بتوخي الحيطة والحذر، وبالتالي فإن التوظيف الأمثل الذي يستفيد منه البحث التاريخي؛ هو التوظيف الذي يضعها في ميزان النقد والتشريح الإبستمولوجي للنص الرحلي الأوربي، هذا النقد الذي "لا يكون تاريخيًا حقًا إلا إذا انتهى بالتحريك ببثّ الحياة في الشواهد المستنطقة"[1].

ولعل هذه الضرورة المنهجية والمعرفية، تصبح ضرورة قصوى ومُلِحَّة عندما يتعلق الأمر بالبحث في مصادر أجنبية، كتلك الكتابات التي خلَّفها الرحالة الأوربيون حول المغرب والمغاربة، فهنا؛ نكون مُلْزَمين ما أمكن بإخضاع هذه الكتابات لمنهج علمي صارم، تتعدد فيه المقاربات وتتعمّق فيه القراءات، بقدر تعدد أبعاد وعُمق الخطاب الرحلي، باعتباره يعكس في كثير من السياقات والمواقع، خطابًا تتخلله نَعراتٌ إيديولوجية متعددة الأبعاد، قد تواطؤ أحيانًا مع ما هو معرفي، لتصبح هذه المعرفة غير سليمة ومُوجَّهة، فكان من الضرورة الإبستمولوجية، كشف بعض مكامن وخلفيات هذا الخطاب، لاسيما عندما يكون خطابا يتأرجح بين ثقافة الرحَّالة وثقافة المرتحَل إليه، وهو الأمر الذي يستدعي ضرورة كشف بعض معالم هذه الخلفيات الإيديولوجية والذاتية التي كانت تُرخي بثقلها في غير ما مرة في بعض القضايا والظواهر التي تهم المغاربة ومن بينها ما يرتبط بالمرأة المغربية، وتركيزنا في هذه الورقة على مدى حضور الخطاب الديني المتعصب في كتابات الرّحالة الأوربيين، في ظل سياق تاريخي آنذاك كانت المعرفة الأوربية هي وسيلة لبث وتكريس أطروحة التفوق الأوربي وخطاب المركزية الغربية على حساب تبخيس

وتشويه صورة الآخر عبر مجموعة من القنوات الخطابية، من بينها خطاب المركزية والنموذج الديني المسيحي وهامشية الدين الإسلامي ومن يدين به، صورة لا تزال مستمرة في الذهنية الجماعية الغربية إلى يومنا هذا، وتطرح معها مجموعة من القضايا والاشكالات المرتبطة بصورة المسلم المتخلف العنيف مقابل صورة المسيحي المتنور والمُسالم، حسب بعض الخطابات، إن كانت فيما مضى ترتكز على الخطاب الرحلي حول العالم الاسلامي، فإنها اليوم على قنوات أخرى، ولعل أبرزها؛ الخطاب الاعلامي الموجه بهذه الأطروحة.

وهو الأمر الذي يجرنا نحو سؤال مركزي في هذا الشأن، وهو سؤال الإبستمولوجي والإيديولوجي، في الخطاب الرحلي الأوربي وتشكيل صورة المرأة المغربية. وبعبارة أخرى: ما تجليات الخطاب الإيديولوجي في النص الرحلي الأوربي؟ وكيف تمّ توظيف الخطاب الديني توظيفا إيديولوجيا من خلال صورة المرأة المغربية وعلاقتها بالدين الاسلامي ضمن هذا الخطاب؟

تظلُّ صورة المرأة المغربية، وما كانت عليه وضعيتها وأحوالها ضمن المجتمع المغربي، كمجتمع ذكوري بالأساس، هي صورة لم تكن في منأى عن إيديولوجيا الخطاب الديني الغربي، وما ينبني عليه من مركزية دينية أوربية، حيث عمل الكثير من الرحالة الأوربيين، وهم يحاولون نقل واقع المرأة المغربية وخصوصياته، على تبريرها وتفسيرها بالعامل الديني، بل هناك من الرحالة، من طفت هذه الأطروحة في خطابه بشكل مُلفت، وهي الأطروحة التي تضع واقع المرأة المغربية من واقع ما يفرضه الإسلام عليها، من هنا؛ فقد استغل هؤلاء الرحالة هذا الواقع الذي توجد ضمنه هذه المرأة، هذا الواقع الذي تُحدّده بشكل كبير قواعد ونظم اجتماعية وثقافية، وما ترسخ في الذهنية المغربية، وما توارثته من أعراف وتمثلات، وعلى هذا الأساس، فقد كانت نصوص الرحالة الأوربيين تعكس هذه الوضعية، ولكن حاولت أن تبررها بتعاليم المرجعية الدينية، التي يؤمن بها المغاربة، فهذا الرحالة "أندري شوفريون[٢]" (A.Chévérillon) يعبر عن الأطروحة بشكل مباشر، حينما يتحدث عن المغاربة، ومن ضمنهم المرأة، حين يصرح بأنه "من بين الأسباب الخفية إلى هذا الحد أو ذاك، التي أوقفت فجأة مسيرة تطور هذا العالم، ثمة واحد يبدو بديهيا هنا، وهو مبدأ إجهاض تحمّله المجتمعات الإسلامية في باطنها منذ تكونيها، وأنا أتحدث هنا عن الأخلاقيات الجنسية للإسلام، الذي لا يرى في الحب غير وظيفته التوالدية والمتعة الجسمانية، ولا يضبط المرء ويوجهه بل يدفعه إلى المتع المباشرة والبسيطة"[٣]. بل الأكثر من ذلك الإسباني "كنالیس فیلیبي[٤]" (Fillip Canales) سيفصح عن تلك الإيديولوجية الدينية المتعصبة، عندما يتجه مباشرة في تبرير ما هي عليه المرأة المغربية من أوضاع، بما جاء به الرسول (ﷺ)، فيقول: "إن محمدًا لم يمنح المرأة ذات الحقوق التي اعترفت لها بها بالمسيحية، هذا أمر لا نقاش فيه"[٥]، إذن هو نص صريح، نفهم من خلاله مدى تلوّن صورة المغاربة بألوان الإيديولوجيا الدينية، فالرحالة يفسِّر واقع المرأة المغربية، والصورة التي شَكَّلها المجتمع المغربي حولها، من حيث قيمتها ووظائفها، وكذا علاقتها بالرجل، بما هو ديني، فدين الإسلام، كما تحاول أن تكرس ذلك أقلام هؤلاء الرحالة؛ هو أساس هذه الوضعية والنظرة التي ينظر بها المجتمع إلى المرأة ومكانتها، "فالمرأة غير مسؤولة عن الدونية الأخلاقية التي توجد عليها، فالأصل في انبطاحها يعود كحال كل شيء إلى النظام السياسي- الديني في البلد"[٦] هذا ما أضافه "كنالیس فیلیبي" وهو يحاول أن يفسر وضعية المرأة بالمغرب.

فالإسلام حسب أغلب الرّحالة الأوربيين، يشكل عاملاً محوريًا في تخلف المجتمع ككل، فهو لا يرى في المرأة سوى وظيفتها الإنجابية، وكذا تحقيق المتعة الجنسية للرجل، لا غير، ولعل هذه الأطروحة ما جعل العديد من الرحالة، وما ترسخ في تمثلاتهم القَبْلية حول المرأة الشرقية عموما، يركزون في كتاباتهم على موضوع المرأة والجنس، بل وصوّروها على أنها عاشقة للجنس، إلى درجة أن هذا الأمر قد يدفعها إلى الخيانة الزوجية، كما أن هؤلاء الرحالة، قد وجدوا في الإسلام ما يجعل المرأة المغربية، تنغلق على نفسها، وفرض العزلة عليها.

إضافة إلى ذلك؛ فقد اعتبر الخطاب الرحلي في كثير من مواضيعه، الإسلام هو أداة من أدوات تقييد حرية المرأة، وفي هذا السياق نجد مثلا الرحالة (A.

(Moullieras "أوكيست موليراس[٧]" يتبنى هذا الطرح، مقابل إبراز مدى تحرر المرأة الأوربية، وفي هذا يقول: أن "ظاهرة الانغلاق في المجتمع الإسلامي، تتنافى مع ما تعودنا عليه في أوربا، من حفلات راقصة ولقاءات يختلط فيها الجنسان بحميمية، ويتلامسان، ويلاحظ بعضهما بعض، المرأة المغربية، العربية أو الأمازيغية، تختفي وراء أسوار منزلها وحجابها، ولا تبدو إلا لأولئك الذين يعيشون معها، أي زوجها وأقاربها"[٨]، إذن؛ فإن "موليراس"، يرى على أن ما تعيشه المرأة من انغلاق وعزلة، هو خاصية من خصائص المجتمعات الإسلامية، فالإسلام يفرض قيودا عليها، ونظاما يجعلها بعيدة عن أعين الآخرين الغرباء، باستثناء المقربين منها، على عكس ما يجده في المجتمعات الغربية، حيث تتوفر للمرأة كل ظروف الحرية، بمفهوم "موليراس"، هي حرية لا تضع أمامها أي قيود أو حدود.

ومن جانب آخر، هناك من الرحالة، مَنْ حاول تكريس المركزية الدينية المسيحية الأوربية، وأفضليتها، مقابل الدونية الإسلامية، من خلال قضية تعدد الزوجات في الإسلام، فالرحالة "أنطونيو مارتن[٩]" (A.Martin) يؤكد على أن "المغربيات، تلك الكائنات الملتهبات والعاطفيات إلى أقصى حدّ يُقَدِّرن كثيرًا الرجال المسيحيين، لأنهن يَعْلَمْنَ أننا لا يُسمح لنا بأن نُحِبَّ أكثر من امرأة واحدة في الوقت ذاته، وإن هذه المرأة التي تُشَكّل النصف الجميل من الجنس البشري هي محترمة ومحبوبة، وموضوع تقدير لدى كل شعوب أوربا"[١٠] فالرحالة "أنطونيو مارتن" ينظر إلى مسألة تعدد الزوجات، كما يُفهَمُ من سياق الكلام الذي أورده الرحالة، على أنها السبب في ميل النساء المغربيات المسلمات إلى المسيحيين، فهُم على عكس الرجال في الإسلام، فالمسيحية لا تسمح لهم إلا بامرأة واحدة، تحظى بكل مشاعر الحب والتقدير، على عكس ما هو في العلاقات الزوجية داخل المجتمع الإسلامي، إذ ينزع الرحالة كل مشاعر الحب عن الإسلام، وتركيزه على الوظيفة الإنجابية والجنسية لا غير، وهو ما تذهب إليه الرّحّالة الإيطالية " ماداليا شيزوتي[١١]" (Maddalena Cisotti) "المرأة في الإسلام، ولدت حقا لخدمة الرجل الذي يضطهدها باستبداده المطلق، وبذكوريته الوحشية[١٢].

ومن تجليات حضور هذه الأيديولوجية القائمة على الخطاب الديني المُتَحيّز، والذي يمنح التفوق للآخر المسيحي الأوربي، مقابل تخلف المسلم بإسلامه، هو استغلال التنوع الإثني للمغاربة، إلى درجة التفريق بين العرب باعتبارهم أصحاب الإسلام وناشروه، وبين الأمازيغ باعتبارهم قد وفد عليهم هذا الدين، فكان الخطاب الديني يُمرّر عبر خطاب آخر، مبني على إيديولوجيا خطاب التمييز العرقي، والفصل بين العرب والأمازيغ، وهذا ما نفهمه من خلال ما ورد عند الرحالة الألماني "غيراهارد غولفس[١٣]" (Gerhard Rohlfs)صاحب رحلة "إقامتي الأولى في المغرب"، إذ يرى على أن "مكانة النساء المميزة عند البرابرة ترجع إلى ما قبل التاريخ الإسلامي، (...) النساء البربريات، احتفظن مع كونهن أصبحن مسلمات أيضًا، بمكانتهن العالية عن وعي"[١٤]، في نفس الطرح ذكر أيضًا الإسباني "فيليبي كناليس" بأن "المرأة البربرية وهم الساكنة الأكثر عددًا، لا تعاني من الانغلاق المتشدد المفروض على غيرها من النساء المسلمات"[١٥]، فالرحالة قصده هنا، واضح جليّ، إذ يسعى إلى تفسير واقع المرأة المغربية ومكانتها، استنادًا إلى إيديولوجية دينية، تتجلى عبر التمييز بين المرأة العربية والمرأة الأمازيغية، على أساس أن السبب في ما تعيشه المرأة من العرب، هو راجع إلى ما تفرضه المرجعية الدينية لهؤلاء العرب، باعتبارهم حاملي هذا الدين، في حين أن ما تتمتع به المرأة الأمازيغية من مكانة وقيمة، فهو يُبَرَّرُ بما كانت عليه المرأة قبل اعتناق المجتمع الأمازيغي للإسلام، وبالتالي فالأطروحة هنا واضحة، فللإسلام الصورة الحالكة، وهو السبب في ما ترزح فيه المرأة المغربية من هامشية ودونية، ومعاناتها أمام الرجل، وهذا امتداد لخطاب المركزية الأوربية بمختلف أبعادها، ولعل أحد أقطابها، هو البعد الديني، مقابل الترويج لصورة مشرقة عن المسيحية ومَعْيَرَتِها، كنموذج مركزي ضمن باقي الديانات، وخاصةً بالنسبة للإسلام.

وإن ما وظّفه هؤلاء الرحالة، في تشكيل هذه الصورة وتنشيطها كتابة، تعود بجذورها منذ فترات مبكرة من التاريخ الحديث لأوربا، حيث "كان الإحساس المسيحي بالتفوق والفكرة القائلة بأن المسيحيين قد اختارهم الله، هي متجذرة من ثورة الإصلاح الديني، واحتقارهم للإسلام، سمات ومعالم ثابتة"[١٦]. لتظل صورة المرأة المغربية تستمد مرجعيتها من صورة الإسلام لدى هؤلاء الرحالة، ونستحضر في هذا الإطار، نصًا للرحالة الإيطالية "مادالينا تشيزوتي"، هو نص يقصف مباشرة الدين الإسلامي باعتباره السبب الأول في تخلّف وانغلاق المرأة المغربية، والمجتمع ككل، حيث تقول: "بالمغرب المقدس، كانت الغلبة دائما للتعصب، والذي أغلق أبوابه بإحكام للحفاظ على التقاليد القديمة، ويمكن القول إن النساء المغربيات حاليًا، وحدهُنّ مَنْ يستحققن فعلاً اسم المسلمات، وهذا ما لا يوجد لدى التركيات أو المصريات اللائي يخرجن بوجوه مكشوفة، ويذهبن أين ومتى شئن، ويركبن العربات والقوارب والسيارات، وتجدهن أحيانًا يدخلن غمار الدراسات الأكثر صعوبة وتنوعًا، أما المرأة المغربية فهي المرأة الحقيقية التي يتحدث عنها القرآن، هي ذاك المخلوق الجميل الذي تنقصه الإرادة، وهي أداة طيّعة بيد الرجل، الذي حسب طبقته الاجتماعية يجعل منها بهيمة لتَحَمُّلِ الأعباء، أو لتزيين حريمه، هذا هو حالها الآن، وهو ما كانت عليه خلال السنوات الأولى من الهجرة، لأن الجدار المنيع الذي ضربه الإسلام حولها، منع أي صدى لعالم آخر غيره، يمكن أن تسمع عنه، فشكلها هو في الغالب جذاب بفعل النعومة والخمول، لكن روحها عبارة عن لا شيء"[١٧].

فالخطاب الرحلي، في تَمَثُّله ورصده لحياة وأحوال المرأة المغربية، كان خطابا تتخلله نبرات الخطاب الديني المتحيّز، وما يفرضه من تعصب سواء بشكل مصرَّح به أو مضمر، فمن الرحالة الأوربيين، من طغى عليه خطاب التعصب الديني والكراهية للآخر المسلم، فاختلطت الصورة بألوان التعصب الديني، خطابٌ وَجَدَ في المكون الثقافي بعاداته ومعتقداته المجال الأنسب، لبث معالم هذا الخطاب الإيديولوجي الديني، وذلك عبر تكريس المركزية الدينية المسيحية على حساب التخلف والانحطاط الإسلامي، وفي مرات عديدة جاءت أوصافهم حاملة لنبرات التهكم والاستهزاء لكل ما يمثل بعض معالم الدين الإسلامي وخصوصيته، فهذا الرحالة "أندري شوفريون"(Andrè Chèvèrillon) يصف النساء من خلال لباسهن المغربي، بـ "النساء المتلفعات مثل الرزم"[١٨]، وفي نفس السياق يقول عن نساء فاس، بأنهن "نساء متلفعات بصرامة لا يظهر منهن أي عضو ولا أي شبر من المفاصل التي تتحرك بها تلك المخلوقات وتنشي"[١٩]، فهو وصف يحاول إعطاء صورة دونية للمرأة المغربية، وهي في لباسها التقليدي، كما تُعلِّق الرحالة الإيطالية " مدالينا شيزوتي"(Maddalena Chisotti) على المرأة المغربية، قائلة بأنها "لم يعرها القرآن إلا جانبًا بسيطًا من الأهمية"[٢٠]، بل وتستمر في تجسيد خطاب الدونية والمركزية المسيحية عندما تنتقد عادات النساء، قائلة: "بدأت بالفعل أتأثر بالطّاعة السلبية كما هي لدى النساء في الإسلام"[٢١].

فخطاب الاستعلاء والتعصب الديني، لم يسلم منه الخطاب الرحلي، في وصف ورصد ما تدين به المرأة المغربية من عادات ومعتقدات، هذا الخطاب الذي يحاول الانتصار للمرجعية الدينية للذات الناظرة مقابل تبخيس وتشويه مرجعية الآخر المنظور إليه، ليصبح الخطاب الرحلي يسير وفق صورتين: فالسلبي هو للإسلام والإيجابي فهو للمسيحية، وهذا ما يجعل صورة المرأة المغربية، هي من صورة هذه الأحكام المتعصبة، ومنها ما يضع دين المسيحية في صورة أكثر انفتاحية ومرونة، على نقيض الدين الإسلامي المتشدد والمنغلق، وهو ما يفهم ضمنيا، من خلال ما ذكره الرحالة "أوكيست موليراس" (A. Moullieras) عن بعض عادات الزواج، قائلاً: "ونظرًا لصرامة التعاليم الدينية فأنت لا تجد عند المسلمين فترة الخطوبة الجميلة التي تكثر في الغرب"[٢٢].

ويستمر خطاب الإيديولوجية الدينية، كخطاب يحاول أن ينتصر لديانة الناظر على حساب ديانة المنظور إليه، وفق آليات الانتقاء والتأويل ضمن عادات ومعتقدات المرأة المغربية بل وثقافة المجتمع ككل، وكثير من هؤلاء الرحالة كانوا يستعملون بشكل مستمر كلمة "مسلمون" فهي تترد باستمرار داخل المتن الرحلي، وهو

في حد ذاته مؤشر على مدى حضور النزعة الدينية عند هؤلاء الرحالة، والمُتمَعِّن في هذا الخطاب، فهو يحاول أن يخلط بين التعاليم الإسلامية كمبادئ وشرائع مُترفِّعة عن كل ما يمارسه المعتنقون لهذه الديانة من المغاربة على الأقل، ما دام مجال دراستنا هو بلاد المغرب، وبالتالي فإن خطاب التعصب الديني قد خلط بين الإسلام كدين وبين ما يرتكبه معتنقوه، سواء عن قصد أو جهل، لكن تكون الغاية من وراء هذا الخطاب هو وضع الإسلام في صورة الدونية، واعتباره السبب الأول في ما تعيشه المرأة المغربية من هشاشة اجتماعية واعتبارية ضمن المجتمع، فالرحالة الإسباني "فيليبي كناليس" (Felipe Canales) يرى بأن الرجل لا ينظر إلى المرأة كزوجة، بل كإحدى الأدوات اللازمة للتناسل وإرضاع أطفاله[٢٣]، ويضيف قائلاً حول مسألة تعدد الزوجات في عادات المغاربة، بأن" تساهل النبي محمدًا مع تعدد الزوجات وهو عارف بنتائجه الوخيمة(...) وهو العارف بمدى تأثير الفرص والحريات التي تتمتع بها النساء في الديانات الأخرى على شعوب تعتقد أن اختلاط الجنسين لا يكون دائما لأغراض جنسية"[٢٤].

فهذه كلها أحكام لا يمكن أن نقول عنها، أو نعقب عليها، سوى بأنها أحكام مشحونة بشرارة دينية متعصّبة، تحاول أن تعطي لعلاقة الزواج كظاهرة ثقافية ودينية، ومتعددة الأبعاد والمقاصد صورة جد ضيقة، ووضع الثقافة المغربية، موضع تخلف وانحطاط وفق مبرر ديني، يتجلى في ما يفرضه الدين الاسلامي في باب الزواج والارتباط بين الرجل والمرأة من قيود ومعايير محددة، لا تتعدى الإنجاب وإشباع النزوات الجنسية لكلا الطرفين، وهي نظرة سطحية، لكن بخلفيات أعمق تتوارى وراء السطور والعبارات، لا يمكن تأويلها إلا بتلون النص الرحلي بتعصب ديني عند مثل هؤلاء الرحالة، ونقل تلك الظواهر الثقافية عند الآخر عبر خطاب إيديولوجي ديني يضع الآخر في أسفل السافلين ويصعد بثقافة ودين الناظر نحو مراتب السمو والمعيارية.

إذن، هي كلها صور تقترن بخطاب المركزية الدينية المسيحية المتنورة التي تبث عبر النص الرحلي، وهذا الخطاب يُسهم في تغذية أطروحة التمركز الثقافي الأوربي، "وتكبير دور المسيحية"[٢٥]، وهو من بين محركات وشروط إنتاج هذه الأطروحة واستمرارها، فكانت صورة المرأة التي كتب عنها هؤلاء الرّحّالة، صورة قد تخللتها بعض ألوان هذا التعصب الديني، وما يخدم أطروحة التفوق المسيحي ومركزيته. وهنا نختم بفقرة جاءت في نص "فيليبي كناليس"(Felipe Canales)، وهي فقرة تبرز بوضوح مدى التعصب الديني الذي كان يحرك بعض الرحالة في قراءة عادات ومعتقدات المرأة المغربية والمجتمع عمومًا، تعصب يسعى دائما إلى تكريس دونية الإسلام مقابل تفوق وسمو المسيحية، فهو يقول: وحيث أن الدين الإسلامي يقبل بدونية المرأة وتعمل الممارسات والمعتقدات القديمة على ترسيخها، فإن النتيجة المنطقية لكل ذلك هو أن الرجل لا يعتبرها ندّا له، فلا يوليها التقدير اللازم كشريكة وفية لحياته وككائن كان سببا في وجوده وهي التي ستعطي الحياة لأبنائه، وهذه ظاهرة لا ينفرد بها المغرب لوحده بين جميع البلدان الإسلامية ولكنها أكثر شيوعًا في المغرب، البلد الأكثر تخلفًا والأكثر مقاومة لأنوار الحضارة"[٢٦].

خَاتِمَةٌ

وارتكازًا على كل ما سبق، نستنتج بأن الخطاب الرحلي لم يكن بريئا، ولم يكن خطابًا غايته الوحيدة هي استكشاف ثقافة الآخر، وبناء صورة معرفية عن الذات الثقافية الجماعية للمنظور إليه، وإنما جاء كخطاب معرفي تخترقه سموم الإيديولوجيا المُوَجَّهَة، التي يختلف منسوبها من نص رحلي لآخر، ولا يمكن أن تتضح معالم هذه الإيديولوجيا إلا عبر إعادة تحريك النصوص الرحلية، والكشف عن أبعاد الخطاب الرحلي الأوربي حول المجتمع الاسلامي، كما هو الحال مع قضية المرأة المغربية ووضعيتها داخل المجتمع وربطها بإيديولوجيا دينية متعصبة، هدفها تمرير أطروحة التفوق الحضاري الأوربي مقابل تبخيس حضارة ودين الآخر، هي صورة ما يزال مفعولها إلى يومنا هذا يؤثر في المجتمع الغربي المسيحي وعلاقته بالمجتمع الشرقي الاسلامي.

الإحالات المرجعية:

(١) العروي، عبد الله. (٢٠٠٥) **مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. الطبعة الرابعة. ص: ٩٣.

(٢) ولد في ماي ١٨٦٤م وتوفي في ٩ يوليوز ١٩٥٧م، هو كاتب وجغرافي فرنسي، تخرّج من جامعة باريس، أهلته خبرته ومؤهلاته بأن يكون عضوًا في أكاديمية اللغة الفرنسية وأكاديمية علوم أقاليم ما وراء البحار، قام برحلات استكشافية لمناطق عدة.

(٣) أندري، شوفريون. (٢٠١٠) **رحلة إلى المغرب**. ترجمة من الفرنسية فريد الزاهي، الطبعة الأولى. دار الكتب الوطنية، أبو ظبي. ص: ١٠٨.

(٤) هو من الشخصيات الإسبانية غير المعروفة، فحتى في إسبانيا كما جاء في مقدمة مترجم نصه الرحلي إذ "يكاد يكون الدكتور فيليبي أوبيلو غير معروف بالمرة"، هو طبيب وخبير في أمراض الأوبئة والجراثيم، اهتم بمجال السياسة في إسبانيا، ومن مناصري التيار الذي كان يدعو إلى التوسع في إفريقيا خلال القرن التاسع عشر. واستقر بطنجة لسنوات واشتغل بالمجال الصحي وقدم خدمات طبية للساكنة خاصة في فترة انتشار وباء الكوليرا الذي ضرب المغرب خاصة سنة ١٨٩٥م.

(٥) فيليبي، أوبيلو كنالس.(٢٠١٥). **حميميات من المغرب**. ترجمة محمد المساري. الطبعة الأولى. منشورات ليتوغراف، طنجة. ص: ٩٧.

(٦) نفسه، ص: ٩٤.

(٧) ولد في دجنبر من عام ١٨٥٥م بمدينة تلمسان بالجزائر، وتوفي في ٢٦ يناير من سنة ١٩٣١م ببيرو مارن (Perreux Marne) التابعة لفرنسا، وهو يعتبر من المبشرين والذين اهتموا بالإثنوغرافيا، يتكلم العربية، ويعرف جيدا عادات وثقافة المسلمين خاصة بالجزائر والمغرب، الأمر الذي ساعده في كتاباته حول المغرب من خلال كتابه (المغرب المجهول) في جزأيه: "اكتشاف الريف واكتشاف جبالة).

(٨) أوكيست، موليراس. **المغرب المجهول، اكتشاف جبالة**، ترجمة من الفرنسية عز الدين الخطابي. (٢٠١١). الطبعة الأولى. منشورات تفراز، دار النجاح الجديدة. ص: ٦٥٧.

(٩) لا توجد معطيات وفيرة حول هذا الشخص، إلا من خلا بعض الإشارات خاصة ضمن كتاباته، فقد ورد في نصه الرحلي أنه من مواليد "لاكورنيا" (La Coruna) في شمال غرب إسبانيا، بتاريخ ١٣ يونيو ١٨٤١م، وهو روائي وشاعر ومستكشف إسباني، وهو من الشخصيات التي كانت مولوعة بالسفر والتجوال، وهو ما تحقق له في رحلته إلى المغرب، بعد إرساله في مهمة استخباراتية لاكتشاف والتعرف على المغرب انطلاقا من سنة ١٨٦٣م. وقد توفي الرحالة بمسقط رأسه عن عمر لا يتجاوز ٤٦ سنة.

(١٠) دي سان مارتين، أنطونيو. (٢٠١٨). **مدينة النعاس، رحلة إلى داخل المغرب**، ترجمة من الاسبانية مصطفى الورياغلي، الطبعة الأولى. منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب. ص: ٥٣.

(١١) ليس هناك معلومات حولها، إلا من خلال ما ورد في نصها الرحلي، فهي امرأة إيطالية فقد قدمت مع زوجها الذي حل بالمغرب في مهمة عسكرية لتسيير إحدى مصانع الأسلحة بفاس، واستقرت رفقة زوجها لمدة سنتين ونصف تقريبا ما بين ١٨٩٧م و ١٩٠٠م.

(١٢) شيزوتي فرارا، ماداليا. (٢٠١٩). **ذكريات شخصية لحياة حميمية بالمغرب**، ترجمة من الإيطالية مصطفى نشاط ورضوان ناصح. الطبعة الأولى. مطابع الرباط نت، الرباط. ص: ١٦٣.

(١٣) ولد في ١٤ أبريل من سنة ١٨٣١م بمدينة برلين الألمانية، ينتمي لأسرة امتهنت الطب، ولذلك هو الآخر اتهن الطب، لكنه سرعان ما التحق بالفيلق الأجنبي الفرنسي وعمل في صفوفه في الجزائر كطبيب عسكري، وقد كانت له رغبة في اكتشاف المغرب، فقام برحلته الأولى ١٨٦١م، ووصل إلى فاس وكان متنكرا في زي طبيب مسلم، ليتم تعيينه كطبيب في الجيش المغربي، وبعد ذلك طبيبا للسلطان المغربي سيدي محمد بن عبد الرحمان، إلا أن شغفه بالسفر والاستكشاف دفع إلى ترك هذه الوظيفة ليتفرغ إلى رحلاته نحو الجنوب عبر واحات تافيلالت ثم رجوعه إلى الجزائر، وبع ثلاث سنوات عاد في رحلة ثانية إلى المغرب سنة ١٨٦٤، ومن هناك اتجه نحو إفريقيا الوسطى ثم إلى طرابلس بليبيا والقاهرة بمصر ثم بلاد الحبشة.

(١٤) غولفس، غيرهارد. (٢٠١٨). **إقامتي الأولى في المغرب، السفر جنوب الأطلس ١٨٦١**. ترجمة من الألمانية ادريس الجاي. الطبعة الأولى. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسيك الدار البيضاء. ص: ٤٠.

(١٥) فيليبي كنالس. سابق. ص: ١٠٧.

(١٦) ساردار، ضياء الدين. **صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية**. ترجمة فكري صالح. (٢٠١٢). الطبعة الأولى هيئة أبو ظبي للثقافة، أبو ظبي. الإمارات. ص: ٦٥.

(١٧) شيزوتي ماداليا. سابق. ص: ١٥٩-١٦٠.

(١٨) أندري شوفريون. سابق. ص: ٩.

(١٩) نفسه. ص: ٩٣.

(٢٠) شيزوتي ماداليا. سابق. ص: ٣١.

(٢١) شيزوتي ماداليا. سابق. ص: ٦٤.

(٢٢) أوكيست موليراس. سابق. ص: ٤٤٠.

(٢٣) كنالس فيليبي. سابق. ص: ٩٣.

(٢٤) نفسه. ص: ١٠٥ (بتصرف)

(٢٥) أمين، سمير. **نحو نظرية للثقافة**، (١٩٨٩). الطبعة الأولى. معهد الانماء العربي، بيروت. ص: ٩٠

(٢٦) كنالس فيليبي. سابق. ص: ١٠٨.